حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

مترجمة بقلم العلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وكانت هذه الكلمات تتضمن تحت طي التهكُّم رفضًا صريحًا لطاعة اوامر المقدَّم وقد فهم مالك كل ما تعنيه غير انهُ لمَّا تذكر وصية مولاهُ الذي امرهُ ان يعود بجوسلين إمَّاحيًّا واما ميتًا رأى من الواجب ان يستدعي منهُ تكرار التنبيه على صاحب القليعة ولم يكن يجهل ما دون ذلك من الاخطار على حياتهِ ولو فُرض انهُ جهايا لأخطرها على بالهِ وجودهُ في تلك القلعة المنيعة ما بين قوم أشرار اهون ما عندهم سفك الدماء. ولكنهُ كان من الذين لا تهولهم المصاعب فعقد العزم على توفية حق المهمة التي أُرسل فيها ومتابعتها حتى نهايتها ثم خاطب جوسلين بقولهِ:

أهذا آخر جواب من جنابك ؟

— هذا الجواب الاخير بلا مراء فافضل شيء لك والحالة هذه ان تعود من حيث اتيت لاني اشعر بان صبري قد فرغ ولا اعلم اي شيء يردّني عن معاقبة هذه الجسارة البادية من خادم حقير مثلك. فبناء عليهِ يجب ان تحسب نفسك سعيدًا بسكوتي عنك وترخيصي لك بالسفر

غير انَّ مالكًا لم يُرهبهُ هذا الكلام مع ما فيهِ من الوعيد الظاهر بل قال:

اني مكلَّف بان لا اسافر من القليعة الَّا في صحبة جنابك. هكذا امرني بصريح المقال سيدي ومولاي المقدَّم رزق الله. وهو يرجو منك ان لا تحوجهُ الى استعمال وسائط أُخرى عنيفة ولكنك اذا خيَّبت رجاءهُ يضطر الى العمل بما لا تحب. فتبصَّر اذًا ايها السيد جوسلين واختر لنفسك ما يحلو امَّا ان تذهب الى بشراي وتبرّئ نفسك ممَّا يُسند اليك امام الامير رزق الله مقدَّم لبنان وامَّا ان تؤخذ قهرًا وعنوةً من قصرك هذا. وانت ادرى بما للمعصية والثورة من العواقب الوخيمة وكفاك زاجرًا عنهما ما حلَّ بمتقدَّم ايطو فانهُ قد شُنق على اطلال البرج الذي ابتناهُ جزاء جسارتهِ على مخالفة مولاي وتمنُّعهِ عن الذهاب الى بشراي بغية استجوابهِ عن التهم التي نُسبت اليهِ

فلما سمع جوسلين هـذه الكلمات حتى كاد يتمزّق من الغيظ فانقلبت سحنتهُ وجحظت عيناهُ واندعر منهُ اتباعهُ مع انهم كانوا قد اعتادوا مشاهدتهُ في مثل هذه الحال ثم انهُ التفت الى مالك قائلًا:

كيف تجسر على تهديدي في قصري بحضور اعواني وجندي ؟ ألا تدري ايها الشقي انك قد سعيت الى حتفك بظلفك ؟ نعم اني لا اعلم بما يعدهُ لي المستقبل في مطاوي اسراره ولكنهُ اذا كان لا بد ان تنتهي حياتي بالشنق فالواجب ان تعلم انك ستسبقني اليهِ واذا كنت اول من تجرأ على مخاطبتي بمثـل هذه التهديدات فثق بانك ستكون الاخير

وكانت في فناء القصر مشنقة منصوبة على الدوام لان جوسلين لم يبقَ لديه غير وسائل الارهاب للمحافظة على بقيّة الترتيب والنظام ما بين مؤتمنيهِ وشركائهِ في جرائمهِ. ولم يكن يستطيع الاعتماد على فضة اليهودي نثنائيل الذي من حين سفرهِ قطع اخباره بالتمام والكمال. وكان قبل بضعة ايام قد شنق جنديًا متهمًا بكونهِ حاول الفرار وترك جثتهُ معلقةً تذكيرًا لحامية القليعة بان مولاهم لا يتساهل ولا يلين في الامور المتعلقة بخدمتهِ

وبموجب اشارة من جوسلين تقـدّم عدد من الجنود المتسلحين فحاطوا بمالك ووضعوا في عنقهِ حبلًا وباشارة ثانيـة منهُ ايضًا علقوهُ في المشنقة ففاضت روحهُ سريعًا والحق بالجندي السابق ذكرهُ المتهم بالفرار وهكذا اصبح في مشنقة القليعة جثتان. ومع ان جنود جوسلين كانوا قـد تعوّدوا رؤية هذه المشاهد وتربّوا على عدم اعتبار الحياة البشريّة بشيء لم يقووا على عدم التأثر من هـذا الصنيع البربري فاقاموا في اماكنهم مبهوتين كأنهم تسمّروا بها تسميرًا. وبينما هم على هذه الحال سمعوا ضجةً عظيمة لان « الريح » الذي هو حصان مالك كان قد توصّل الى قطع القيود التي ربط بها في حلقة من الحديد مغروسة في السور فسار بسرعة عظيمة الى الباب الذي كان قد أُبقي مفتوحًا وغاب عن الابصار في الطريق المؤدية الى جهة حصن سليمان

غير انهُ لم يخل احد مما اظهرهُ الريح اولًا لان الحصان المذكور كان ذا منظر ضئيل فلم يكن احد ليطمع في امتلاكهِ وهب انهم طمعوا فيـهِ ما كانوا ليدركوهُ لانهُ في دقائق قليلة قطع مسافة شاسعة فات فيها جهد اللاحقين

وفي مساء النهار قبل مغيب الشمس حُفرت حفرة عميقة تحت المشنقة ودفنت فيها جثة مالك واقام جوسلين ينظر اليها مدّه بضع دقائق وهو يتبسّم تبسّم التشفي ثم قال:

الآن يستطيع المقدم ان ينظر بصبر وتؤدة وجوع حاجبيه وكيف يُردُّ القبر زائره وكيف يتكلم الاموات. نصبتَ لي يا رزق الله فخًا فاحبطتُ خديعتك فاقم الآن على حذر ولسوف نعلم من ترجح يده كفّة الميزان

١٧

ولنعد الى الكلام عن بشراي فنقول انّ القوم فيما كانوا حتى ذاك الوقت يقيمون الاعياد فرحين بعودة المقدم رزق الله ظافرًا منصورًا وجميعهم ألسنة ناطقة بحمده لانهُ أبعد عن لبنان جائحة الحرب وكان الفلاح يتوقّع بمسرّة نموّ زرعه دون ان يخشى عليه هجوم عدوّ والامهات تعتني بتربية اطفالهنّ في سلام وسكينة بلا خوف من تعكُّر كأس صفائهنّ وعليه فان تلك الاشهر القليلة التي اظهر فيها المقدم حكمةً وثباتًا في التدبير كانت كافية لاحداث الثقة في كل محل وتأكيد الخصب والسلام في تلك الجبال الجميلة وقد نال هذه الشهرة برباطة جاشه وبالعقوبات الزاجرة التي انزلها بمن كانوا سببًا في اقلاق الراحة العمومية

ولمّا كان يوم الاحد جلس الامير رزق الله بحسب عادته الحميدة تحت السنديانة النابتة الى جانب الكنيسة الكبرى وجلس الى جانبه فرا غريغون الذي كان قد عاد حديثًا من سفرته الى اوربّة فاقبل المقدم يسألهُ عن رومية وعن الامراء الذين زارهم في جهات المغرب فجعل الراهب الفرنسيسي يقصّ عليه كيف انهُ لمّا كان في رومية وفد تجار من البندقية حاملين رسالةً من عزيز مصر الى الحبر الاعظم وكانت مكتوبة على نصف طلحيّة كبيرة وفي صدرها اعلام السلطان تليه العبارة الآتية: «ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية الباب الجليل القديس الروحاني الخاشع العامل بابا رومية عظيم الملّة المسيحيّة قدوة الطائفة العيسويّة يملّك ملوك النصرانيّة حافظ البحور والخلجان مَلاذ البطاركة والقسوس والرهبان تالي الانجيل معرّف طائفته التحريم والتحليل صديق

الملوك والسلاطين » (١ . وبعد الدعاء هذه الكلمات « صدرت هذه الكتابة عن الابواب الشريفة » وعلى اثر ذلك بسط الغرض المقصود مؤكدًا لقداسة الحبر الاعظم انهُ ينصر المسيحيين الافرنج في بلادهِ ويعطيهم ملء الحرّية في ممارسة شعائر ديانتهم وتجارتهم . ثم تشكّى من اعمال اللصوصية البحرية التي كان يأتيها بعض القرصان الجنويين وسأل البابا ان يتوسّط في المسألة منعًا لمثل هذه الحوادث

ولم يكن في رومية اذ ذاك من يعرف العربية سوى فرا غريفون فترجم الرسالة وعند عودتهِ الى الشرق اعطاهُ البابا جوابها الى سلطان مصر

ثمَّ ان فرا غريفون قصَّ ايضًا على المقدّم رزق الله مواجهته لدوق بورغوندية اميره الذي قابلهُ بما لا مزيد عليهِ من التجلّة والاكرام في مدينة بروج قاعدة مملكتهِ . وكان الدوق المشار اليهِ اقدر واغنى سلاطين اوربّة لذاك العهد وكانت ولايته شاملة للجكة وهولندة وعدّة أقاليم أخرى في شمالي فرنسة . وكان يهتم ايضًا بشؤون الشرق واحوالهِ لسببين اولهما دينيّ وهو احترامهُ للارض التي تقدّست بحياة المخلّص والثاني سياسيّ وهو رغبتهُ في توسيع العلائق التجاريّة لمالكهِ مع هذه الجهات (٢

ولمّا شاهد فرا غريفون الذي كان من جملة رعاياه خبيرًا بالأحوال التي يريد استيضاحها سُرَّ بهِ كثيرًا وأكرمهُ جدًّا وكان يفتكر وقتئذٍ في عقد تحالفة مع ملك العجم فلهذا لما قابلهُ مقابلة الوداع صرَّح لهُ بأنهُ قد اختارهُ سفيرًا من قبلهِ لدى بلاط اصفهان (٣

وكان المقدّم رزق الله يسمع حديث غريفون بشوق ولذة فلما دار الكلام على دوق بورغوندية قاطعهُ قائلًا:

انَّ سيدي الاب يوحنا وئيس دير القديسة تقلا كثيرًا ما كان يحكي لي عن الدوق فيليب الملقَّب بالصالح فهل هو حيٌّ للآن ؟

— أعطاك الله عمره وقد خانهُ ولدهُ يوحنَّا فلقبهُ الشعبُ بالجسور لشجاعتهِ . غير انَّ الاسم الذي ذكرتهُ ايها الامير فطنني الى مهمّة خطيرة كُلّفت بابلاغها اليك فقد كنَّا

---

١) عن صبح الاعشى للقلقشندي بحروفهِ ج ٤ ص ١٦٦

٢) راجع بارنت تاريخ دوقات بورغندية ٣) بارنت

نظنّ جميعاً ان الاب يوحنّا البـار ينتمي الى أسرةٍ شريفة في المغرب ففي سفرتي هذه وجدت انّ ظنّنا في محلّهِ لان الاب المذكور هو من انسباء درق بورغونية حتى انّ الدوق يوحنا بعينهِ سألني عن اخبارهِ فلم استطع ان اذكرَ لهُ سوى معلومات يسيرة مبهمة لاني كنت اجهل كلّ الجهل ما جرى لهُ في غيابي

— ليطمئن بالك يا أبي من قبلهِ لانّ صاحبي مالك قد سافر منذ اسبوع الى جبل الكلّام. وهو رجل صلب لا تعوقهُ الاخطار مهما كانت عن تنفيذ ما أُكلفهُ بهِ من المهمّات وانا الآن انتظر رجوعهُ من يوم الى آخر بذهاب صبر. . . !

وما كاد يتمّ هذه الكلمات حتى شاهد حصانًا راكضًا فأتى ووقف تجاه الجماعة المحيطين بالامير والاب غريفون فعرفهُ الكل وقالوا « هذا الريح هذا حصان مالك »

(ستأتي البقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

PUBLICATIONS DE L'ÉCOLE DES LANGUES VIVANTES

1° Le livre de la Création et de l'Histoire d'Abou Zeid al-Balkhi, *édité et traduit par C. Huart*, T II

كتاب البدء والتاريخ لابي زيد البلخي

2° Tarikh es-Soudan par Abderrahman es-Saadi *traduction française par O. Houdas*

تاريخ السودان لعبد الرحمان السدي (القسم الثاني)

اهدانا مكتب اللغات الشرقيّة الحيّة في باريس هذين الكتابين وقد مرّ في المشرق وصف اقسامها الاولى

١ (كتاب البدء والتاريخ لابي زيد البلخي) يتضمن هذا القسم الثاني من الفصل السابع الى التاسع من الاصل العربي وهو عبارة عن ٢٤٠ صفحة يُضاف اليها ترجمة افرنسيّة وفهارس (ص ٢١٦). وقد اثنينا على هذا الكتاب ومؤلفهِ ومتولي نشره وحسن طبعهِ ثناء طيباً (المشرق ٢: ١١٢٨) يصحّ كلهُ في هذا القسم الجديد. اما الاغلاط الطبعيّة والتصحيفات التي اشرنا اليها حينئذٍ فقد وجدنا مثلها في هذا الجزء كقولهِ (في الصفحة ٢٢): « اما معذّبة واما تُجلَد » والصواب « واما تَجلَدُ » اي